رابعة العدوية[١]

إنّها ذاتُ الخدر الخاص، المستورةُ بستر الإخلاص، المُتَّقدةُ بنارالعشق والاشتياق، المتحرِّقةُ إلى القُرب والاحترام، الفانيةُ في الوصال، المقبولةُ عند الرجال، كأنَّها مريم ثانية، صافيةٌ صفية، إنَّها رابعة العدوية ـ رحمة الله عليها.

فإنْ سألني أحدٌ: لِمَ ذكرتَها في صفِّ الرجال؟ لقلتُ لهم: قد قال السادة الأَنبياء عليهم السلام: «إنَّ الله لا ينظرُ إلى صُوَرِكم. . .» الحديث.

فالعبرة لا بالصورة، بل بالنية كما قال عليه السلام: «يُحشرُ الناس على نيّاتهم». فإذا كنَّا نأخذُ عن عائشة الصدّيقة رضي الله عنها ثُلثَ الدين، فمن الجائز أن تتلقَّى فائدةً دينية من إحدى خادماتها.

إنَّ المرأةَ التي تسلك الطريق إلى الله كما يفعل الرجال، لا يُمكن أن تُسمّى امرأةً.

ولقد قال عباسة الطوسي: إذا دُعينا يوم القيامة: (يا رجال)، فأوّلُ متقدّم في صف الرجال سيكون مريمَ عليها السلام.

وكان الحسنُ إذا لم يرها في المجلس حاضرةً ترك المجلس ـ ومعنى هذه الحقيقة (وهو مساواة النساء بالرجال في القداسة) أنه حيث يوجد الصوفية فلا تفريقَ بينهم في وحدة الوجود (الإلهي)، ففي التوحيد ماذا يبقى من وجود (أنا أو أنت)؟ وإذن كيف يكون ثمَّتَ امرأة ورجل؟

كذلك قال أبو علي الفارمذي رضي الله عنه: إنَّ النبوةَ عينُ العزَّةِ والرِّفعة؛ فليس فيها سموٌّ وانحطاط. ولا ريب في أنَّ الولايةَ من هذا النوع.

---

(١) نشرها الدكتور عبد الرحمن بدوي في كتابه «شهيدة العشق الإلهي» صفحة ١٤٢، عن ترجمة المستشرق الفرنسي أ. بافيه دي كورتي. وانظر ترجمتها صفحة (٩٤).

لقد كانت رابعة فريدةٌ في معاملتها، وفي معرفتها.

وكانت معتبرةً في جملة كبار عصرها، وكانت حجَّةً قاطعةً عند معاصريها.

وفي الليلة التي أتت فيها رابعة إلى الدنيا لم يكنْ في بيت أهلها شيءٌ، لأنَّ أباها كان فقيراً، فلم يكن عنده قطرةٌ من سمنٍ حتى يَدهنوا موضع خلاصها، ولم يكن ثمة نورٌ ولا خِرَقٌ للفِّ الوليد، وكان له ثلاث بنات فسميت (رابعة) لأنَّها رابعتُهن. فقالت له امرأته: اذهبْ للجيران وأتِ بقطرةٍ من الزيت حتى يضيءَ القنديل. ولكنه كان قد عاهد نفسه على ألاَّ يطلبَ من الناس شيئاً، لأنه لو طلبَ شيئاً ما أعطوه، مع هذا ذهب إلى الجارةِ وطرق الباب، ثم عادَ إلى زوجه وقال: إنَّه لم يُفتح له. فبكتْ.

وفي ذلك الوقت أطرقَ على ركبتيه ونام، فرأى النبيَّ عليه السلام في منامه، وقال له الرسول: لا عليكَ، لأنَّ هذه البنتَ التي وُلِدت هي سيدةٌ؛ إنَّ سبعين ألفاً سن أُمتي ليرجون شفاعتها. وقال له: اذهب غداً لعيسى [بن] زاذان أميرِ البصرة، واكتب له ورقةً، وقل له: إنَّك تُصلّي مئةَ صلاة، وفي ليلةِ الجمعة أربع مئة، ولكن في يوم الجمعة الأخيرِ نسيتني، فادفعْ كفارةً أربع مئة دينار حلال لهذا الشخص. فلمّا أفاقَ والد رابعة من نومه كتب الرسالة، وأرسلها عن طريق الحاجبِ إلى الأمير، فلمّا قرأها الأميرُ قال: أعطوا ألفي دينار للدراويش، وأربع مئة للشيخ، وقولوا له أن يأتي إليّ لأراه؛ كلاّ؛ بل لا أرى من الموافق أن يأتي إليّ، بلى سأذهب إليه أنا، وأحنّي لحيتي على أعتابه وأمسحها بها، وأطلب من الله كلَّ ما تريده، وأشتري من فاخر الثياب وكلَّ شيء تريده (الفتاة).

فلمّا كبرتْ، وتُوفّيت أمُّها وأبوها حدث في البصرة قحطٌ، وتفرَّقت أخواتها. فلمّا خرجتْ رابعة تهيم على وجهها رآها ظالمٌ وباعها بستة دراهم، ومن اشتراها أثقلَ عليها العمل، وذاتَ يومٍ جاء رجلٌ غريب، فهربَتْ وسارت في طريقها، ثم ارتمتْ على التراب، وقالتْ: يا ربي، أنا غريبةٌ ويتيمة وأسيرة،

وقد صرتُ عبدةً، لكنَّ غمّي الكبير هو أن أعرفَ أَراضٍ عنّي أنت أم غيرَ راضٍ؟ فسمعتْ صوتاً يقول لها: لا تحزني، لأنه في يوم الحساب المقرّبون في السماء ينظرون إليك ويحسدونك على ما أنت فيه.

وبعد أن سمعتْ هذا الصوت ذهبتْ إلى بيت سيدها، وصارتْ تصومُ وتخدم كلَّ يومٍ سيدها، وتُصلّى لربّها، ساهرةً على قدميها، وذات ليلةٍ استيقظ سيدها من النوم، ونظر من خوخةٍ في الباب، فرأى رابعةَ ساجدةً وهي تقول: إلهي، أنت تعرفُ أنَّ قلبي يتمنّى طاعتك، ونور عيني في خدمة عتبتك، ولو كان الأمرُ بيدي لما توقّفتُ ساعةً عن خدمتك، لكنَّك تركتني تحت رحمة هذا المخلوق. وبينما كانت لا تزالُ تُصلّى، شاهدَ قنديلاً فوق رأسها مُعلّقاً بدون سلسلة، وكان النورُ يملأ البيت كلَّه، فلمّا رأى سيدُها هذا النورَ العجيبَ فزعَ ونهض، ثم عادَ إلى مكانه، وظلَّ يفكّر حتى طلعَ النهار. هنالك دعا رابعة وحدّثها بلطفٍ وأطلق سراحها قائلا: يا رابعة، لقد أعتقتُك حُرَّةً، فإذا شئت بقيت هنا، وسنكون جميعاً في خدمتك؛ وإذا لم تشائي اذهبي أنّى شئت. فودّعته رابعة، وارتحلت، وانقطعت للتقوى والعبادة.

ويُقال: إنَّ رابعة كانت تُصلّى كلَّ يومٍ وليلةٍ ألفَ ركعة.

وكانت تتردَّدُ على الحسن البصري.

وفي روايةٍ أُخرى: أنها كانت تضربُ على الناي.

وقال قومٌ: إنّها عملت مطربةً مدةً ما، ثم تابتْ وابتنتْ لنفسها خلوةً انقطعت فيها للعبادة.

وذات يومٍ ارتحلت إلى الكعبة، وكان لها حمارٌ حمَّلته متاعَها. فنفقَ الحمار، فقال مَنْ بالقافلة: سنحملُ متاعَكَ على دوابنا. فقالت رابعة: ما كان اعتمادي عليكم حينما أتيت، بل ثقتي بالله تعالى، فارحلوا إذن. فلمّا ارتحلتِ القافلة دعت رابعة الله قائلة: إلهي، أكذا يفعلُ الملوكُ بعبيدهم الضعفاء العاجزين؟ لقد دعوتني إلى زيارة بيتك، وها أنت ذا تدع حماري ينفُقُ في الصحراء، وتتركني في الخلاء وحيدةً. فما كادت تنطِقُ بهذه الكلمات حتى

نهض الحمار مليئاً بالحياة، فوضعت عليه متاعها، واستمرَّتْ في طريقها ولحقت بالقافلة.

ويقال: إنها كانت في طريقها إلى الكعبة ذات يوم، فبقيتْ وحدها في الصحراء، وقالت: إلهي، إن قلبي مضطربٌ وسط هذه الدهشة، أنا لبنةٌ والكعبة حجر، وما أُريده هو أن أشاهدَ وجهَكَ. فناداها حينئذٍ صوتٌ من عند الله تعالى يقول: يا رابعة، أَتعملين وحدك ما يقتضى ذمَّ الدنيا كلها؟ لما أراد موسى أن يشاهد وجهنا، لم نُلقِ إلاّ ذرةً من نورنا على جبلٍ، فخرَّ صَعِقاً.

ويُروى مرةً أُخرى: أنه لما كانت رابعة بسبيل الحجِّ، رأتَ الكعبةَ قادمةً نحوها عبر الصحراء. فقالت رابعة: لا أُريد الكعبة، بل ربَّ الكعبة، أمَّا الكعبة فماذا أفعل بها؟ ولم تشأ أن تنظرَ إليها.

وكان إبراهيمُ بن أدهم قد أمضى أربعين سنة ليبلغ الكعبة، لأنَّه كان في كلِّ خطوةٍ يُصلّى ركعتين، وكان يقول: غيري يسلك هذه الطريق على قدميه، أمَّا أنا فأسلُكُها على رأسي. وبعد أربعين سنة بلغها، فلم يجدْها في مكانها، فقال نائحاً: وا أسفاه، أَصرتُ أَعمْى حتى لا أرى الكعبة؟ فسمع صوتاً يقول: يا إبراهيم، لستَ أعمى، لكنَّ الكعبة قد ذهبت للقاء رابعة. فتأثَّر إبراهيم، ثم رأى الكعبة قد عادت إلى مكانها، وأبصر رابعة تتقدَّمُ مُستندةً إلى عصًا: أي رابعة ـ هكذا قال لها ـ ما أجلَّ عملك! وما الضجة التي تُحدثينها في الدنيا! الكلُّ يقولون: ذهبتِ الكعبةُ للقاء رابعة. فأجابته رابعة: يا إبراهيم، وأيَّةُ ضجَّةٍ تُحدثُها أنت في الدنيا بأن أمَضيت أربعين سنة حتى بلغت هذا المكان، لأنَّ الكلَّ يقولون: إبراهيم يتوقَّفُ كلَّ خطوةٍ ليُصلّى ركعتين. فقال إبراهيم: نعم، قد أمضيت أربعين سنةً في اختراق هذه الصحراء. فأجابت رابعة: يا إبراهيم، أنت جئتَ بالصلاة، وأنا جئت بالفقر. وبكت طويلاً، وبعد أن زارت الكعبة عادتْ إلى البصرة.

وفي وثبةٍ من قلبها صاحت: إلهي، وعدت بجزاءين لشيئين: القيامِ

بالحج، والصبرِ على الشدائد، فإذا لم يكن حجّي صحيحاً عندك، فما أَكبرها مصيبة عندي! لكن ما جزاء هذه المصيبة؟

وفي السنة التالية قالت: إذا كانت الكعبةُ قد أقبلت إليّ في العام الفائت، أنا التي سأقبلُ عليها هذا العام.

وروى الشيخ أبو علي الفارمذي أنه لما جاء موسم الحجِّ، توجَّهت رابعةُ ناحيةَ الصحراء، وتقلَّبتْ على أضالعها حتى بلغتِ الكعبة في سبعة أعوام، فلمَّا بلغتها سمعتْ صوتاً يقول لها: ماذا تُريدين يا رابعة؟ إذا كنتِ تُريدينني فسأتجلّى لكِ بكلِّ جلالي، فتذوبين توًّا كما يذوب الماء. فأجابت: إلهي، ليس لي من الطاقة ما يُبلّغني هذه المرتبة، ولستُ أطلبُ إلاّ ذرّةً من الفقر الروحي. فقال الصوتُ: أي رابعة، إنَّ الفقرَ عاطفةٌ خوفٍ من غضبنا، جعلناها في طريق الأولياء، لكن إذا لم يبق عليهم ليبلغوا إلينا إلاّ قيد الشعرة فقد يحدثُ أن يفسدَ أمرُهم في الحال، وينحُو عن الغاية، أمَّا أنت، فلا تزالين في داخل السبعين حِجاباً ومقاماً، فطالما لم تخرجي من تحتها، وتضعي قدمَك في طريقنا، لن تقدري على الحديثِ عن الفقر. فقال صوتٌ: يا رابعة، انظري إلى الأعلى. فلمَّا نظرت إلى الأعلى، رأتْ بحراً من الدم مُعلّقاً في الهواء، وصاح لها صوتٌ: يا رابعة، إنَّ هذا البحرَ من دموع الدم الساقطة من عيون أولئك الذين أحبُّونا وسعوا إلينا، ومنذ المقام الأول قُضي عليهم إلى حدٍّ أنَّه لم يبق من أشخاصهم أثرٌ في هذا العالم أو في الآخرة. فقالت رابعة: إلهي، دعني أرى مثلاً على درجةِ السعادة التي يصلُ إليها هؤلاء العشّاق. فما أتمَّتْ هذه العبارة حتى أتاها الحيضُ، وصارت غيرَ طاهرة، وفي نفسِ الوقت ناداها صوتٌ يقول: إنَّ المرتبةَ الأولى التي يبلغها العشاق يُمثّلها تماماً إنسانٌ تقلّبَ على أضلاعه سبع سنوات كيما يزور جداراً من اللِّبن، ولمّا اقتربَ من هذا الجدار أُغلقَ الطريقُ على نفسه نتيجةَ عائقٍ نشأ عن شخصه. فلمّا يئستْ رابعة قالت: إلهي، لا تدعني كي أبقى في بيتي، ولا تُريد أن تقبلني في بيتك؛ فإمّا أن تدعني أُقيم هادئةً في بيتي بالبصرة، أو اسمحْ لي أن أدخل الكعبةَ، وهي منزلك، لقد فتَّشْتُ

عنك قبل أن أحني رأسي أمام الكعبة؛ دعني إذن أذهبُ؛ فلستُ جديرةً بدخول بيتك. ثم عادتْ إلى البصرة؛ وأقامت في خلوتها، وانقطعت بكامل نفسها للعبادة.

ويُروى: أن عالِمَيْنِ ذهبا لزيارة رابعة؛ وكانا جائعين، فقدَّمتْ لهما رغيفين كانا عندها، وفي تلك اللحظة جاء شيخٌ يَسألُها على الباب، فقدَّمتْ إليه الرغيفين. فدهش العالمان، وجلسا يتأمَّلان ما جرى، فشاهدا خادمةً تحملُ مفرشاً من الخبز، وضعته أمام رابعة، وقالت: إنَّ سيدتي في خدمتك. فلمّا عدَّتْ رابعةُ الأرغفة وجدتها ثمانية عشر، فأعادتها إلى الخادمة مع المفرش، وقالت: خذيها واذهبي، لقد أخطأتِ العدد. فقالت الخادمة: كلاَّ لم أُخطئ. فقالت رابعة: كلاَّ، بل ثمَّت خطأ. فأخذتِ الخادمة المفرشَ، وذهبت إلى سيدتها، وروت لها كلَّ ما حدث، فوضعتِ السيدة رغيفين آخرين مع بقية الأرغفة وأرسلتها. فأحصتْ رابعةُ عددَها، فوجدته عشرين، وضعتها أمام ضيوفها من العلماء، فلمّا فرغا من الطعام سألاها السرَّ فيما حدث. فأجابت رابعة: لمّا وصلتم عرفتُ أنَّكم جائعون، فقلت لنفسي: ليس عندي إلاّ القليل، وفي تلك اللحظة جاء السائلُ الذي أعطيته الرغيفين، ثم دعوتُ هذه الدعوة: إلهي، لقد قلت: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] وأنا من أجلك أعطيت رغيفين، فأعطني عشرةً من كلِّ واحدٍ. فلمّا جاءت الخادمة بالثمانية عشر رغيفاً، قلت لنفسي: إمّا أن يكون أحدُ الناس قد أخذ منها اثنين، وإمّا ألاَّ تكون لنا. ورددتها، فلمّا أعادتها بزيادة رغيفين، فهمتُ أنَّ هذه لنا.

وذات ليلة كانت رابعة تتهجَّدُ، فدخلت قصبةٌ في عينها دون أن تشعر بها، لأنَّ عشقها لله كان متأصِّلاً في أعماق قلبها.

ويحكى كذلك: أنَّ لصًّا دخل بيت رابعة، وسرقَ خِمارها، ولكنَّه لم يجدْ مخرجاً، لكن لم يكدْ يدع الخمارَ في مكانه حتى وجد المخرج، فأخذ الخمارَ من جديد، لكنَّ السبيل أُغلقَ عليه، وفعل هذا سبع مرات، يأخذ الخمار

ولا يجدُ المخرج إلاّ إذا أعاده إلى مكانه، هنالك ناداه صوتٌ يقول: يا لص، لا جدوى في محاولاتك، فمنذ عهدٍ طويل ورابعة قد وكلَتْ إلينا السهرَ عليها، ولا نسمحُ بدخول إبليس في خلوتها، وأنت أيُّها اللص، تُريد أن تسرق خمارها؟ أَلاَ فلتعلم أيُّها الشقيُّ أنه حينما يكون أحدُ أحبابنا غارقاً في النوم، هناك صديقٌ يسهرُ على أمره.

كما يُروى: أنَّ خادمةَ رابعة كانت تُهيِّئ طعاماً بالزيت لسيدتها، فلم يكن عندها بصلٌ، فقالت لها: سأسأل جارتنا وأعود. فقالت رابعة: منذ أربعين سنة وقد عاهدتُ اللهَ على أَلاَّ أسألَ أحداً شيئاً غيره، فإذا لم يكن ثمت بصل فلا ضيرَ. وفي الحال تبدّى طائرٌ يحملُ بصلاً قشّره وقطّعه قطعاً وألقى به في المقلاة، فلم تأكل رابعة من هذا الطعام، واكتفت بالخبز، ثم قالت: يجب على المرء ألاَّ يغترَّ بحيل الشيطان.

ويُروى أيضاً: أنَّ رابعة صعدت جبلاً، فأقبلت حولها كلُّ الغزلان الموجودة؛ وبقيت آمنةً كلَّ الأمان، وفجأة جاء الحسنُ البصري، ففرَّتْ كلُّ الغزلان، فقال لها: يا رابعة، لماذا فرّت كلُّ الغزلان منّي، ولم تفرَّ منك أنت؟ فسألته: ماذا أكلتَ اليوم يا حسن؟ قال: أكلتُ طعاماً طُهي بقطعة زيتٍ. فقالت رابعة: يا مَنْ تأكلُ من دهنها، كيف تُريدُ ألاَّ تفرَّ منك؟

ويُحكى: أنَّ الحسن البصري رأى رابعة جالسةً على شاطئ الفرات، فألقى على الماءِ سجادته، ووقف عليها، وقال: يا رابعة، تعالي نُصلّي ركعتين على الماء. فقالت: سيدي، أهي أمور هذه الدنيا ما تريد أن تظهره لأهل الآخرة؟ أظهر لنا شيئاً لا يستطيعُ جمهورُ الناس أن يفعلوه. قالت هذا وألقتْ سجّادتها في الهواء، وصعدت عليها وصاحت: تعالَ يا حسن، نحن هنا في مكانٍ آمنٍ وأبعدَ عن عيون الناس. وقالت تعزيةً للحسن: سيدي، ما فعلتَ أنتَ يستطيعُ السمك أن يفعله، وما فعلتُ أنا يستطيعُ الذُّباب أن يفعله، المهمُّ أن نبلغَ درجةً أعلى من هاتين الدرجتين اللتين بلغناهما.

ويُروى أنَّ الحسن البصري قال: بقيتُ ليلةً ويومًا عند رابعة نتحدَّثُ عن

الطريق الروحي، وأسرارِ الحقِّ بحرارةٍ بلغت حدًّا نسينا معه أنني رجلٌ وأنها امرأة، فلمّا انتهينا من هذه المناقشة، شعرتُ بأنني لم أكن إلاّ فقيراً، بينما هي غنيةٌ بالإخلاص.

ومرة أُخرى ذهب الحسن البصري وبعضُ أصحابه إلى رابعة، وكان الوقت ليلاً، فاحتاجوا إلى مصباحٍ، فلم يجدوا، هنالك وضعت رابعةُ أطرافَ أصابعها في فمها، ثم آخرجتها، فظلَّ يشعُّ منها حتى مطلع الفجر نورٌ كأنه نور مصباح. فإن سأل أحدٌ كيف حدثت هذه الكرامة، فأخبره أنَّ النورَ كان يشعُّ من يد موسى. فإذا قيل لك؛ إنَّ موسى عليه السلام كان نبيًا، وإن رابعة لم تكن نبيةً، فأجب: إنَّ من ينفِّذُ الأوامرَ التي أتى بها الأنبياء يشاركُ في قدرتهم على الإتيان بالمعجزات؛ فإذا كان للأنبياء معجزاتٌ، فإنَّ للأولياء كرامات. وهذه حقيقةٌ يؤيِّدُها حديثُ الرسول عليه السلام حين قال: «من ردَّ دانقاً ـ وهو سدس الدرهم ـ من الحرام، فقد نال درجة النبوة[1]»، أو «الرؤيا الصادقة جزءٌ من النبوة».

ويُحكى أنَّ رابعة أرسلت إلى الحسن البصري ثلاثة أشياء: قطعةَ شمع، وإبرةً، وشعرةً، وأمرتِ الرسول أن يقول له: يا حسن، اشتعلْ كالشمع، وأَضيء للناس؛ وابدأ بأن تكون مُتجرِّداً، ثم اعمل؛ فإن فعلت هذين، صِرْ نحيلاً كالشعرة إذا أردت ألاّ يذهبَ جهدُك سدًى.

وسألها الحسن البصري: هل تتزوَّجين؟ فأجابته: الزواج ضروريٌّ لمن له الخيار؛ أمّا أنا فلا خيارَ لي في نفسي؛ إني لربّي، وفي ظلِّ أوامره، ولا قيمة لشخصي. فقال الحسن: فكيف بلغت هذه الدرجةَ؟ قالت: بفنائي بالكلّية. فقال الحسن: أنت تعرفين لماذا؛ أما نحن فلا يوجد لنا هذا. ثم أضاف: أي رابعة، أخبريني بشيءٍ مما أُلهمتِه. فأجابت رابعة: ذهبتُ اليوم إلى السوق ومعي حزمتان من الحبال، بعتُها بمثقالين من الذهب حتى أحصل على طعامٍ،

(١) بنصه العربي في الأصل.

وأخذت إحدى القطعتين في كلتا اليدين مخافة أنّي لو أمسكتُ بهما معاً لجعلاني أَضلّ الطريق القويم.

وقال لها الحسن أيضاً: لو كنتُ في الجنة بعيداً قدر نَفَسٍ من وجه الله لبكيت إلى حدٍّ يُثير شفقةَ الآخرين عليَّ. فقالت رابعة: حسناً؛ لكنّ من يهمل في هذه الدنيا، أو يُسبّح بحمد الله لحظةً وهو ينوح ويبكى، فإنَّ هذا آيةٌ على أنه في الآخرة سيكون على الحال التي وصفتها.

وسئلت: لماذا لا تتزوّجين؟ فأجابت: هناك ثلاثةُ أشياء تسبِّبُ الهمّ عندي؛ فإذا كان من يُخلّصني منها تزوّجت. قيل: وما هي؟ فأجابت: أولها: هل إذا أنا مُتُّ أأستطيع أن أتقدّم بإيماني طاهراً؟ والثاني: إذا ما كنتُ سأُعطى كتابي بيميني يوم القيامة؟ والثالث: إذا جاء يومُ البعث وأُخذ أصحابُ الميمنة إلى الجنة، وأصحابُ المشأمة إلى السعير، فمن أي الفريقين سأكون؟ فقالوا جميعاً: لسنا نعرف شيئاً عمّا سألته. فقالت: إذا كان الأمر كذلك، وأنا في قلقٍ من هذه الأمور، فكيف أحتاجُ إلى الزوج وأتفرَّغ له؟

وسُئلت: من أيت أتيت؟ فقالت: من العالم الآخر. فقيل: وإلى أين تذهبين؟ قالت: إلى العالم الآخر. قيل: وماذا تفعلين في هذه الدنيا؟ قالت: أعبث بها: قيل: وكيف تعبثين بها؟ قالت: آكل من خُبزها، وأعملُ عمل الآخرة.

وسئلت أيضاً: إنك بارعةٌ في الكلام، أفلا تصلحين لحراسة رباط؟ فقالت: إني حارسةُ رباطٍ فعلاً، لأنّي لا أدع شيئاً يخرجُ ممّا في داخلي، ولا أدع شيئاً يدخلُ ممّا هو خارج.

وسُئلت: أي رابعة، أتحبّين الله تعالى؟ قالت: أوه، نعم أحبُّه حقًّا. قيل: وهل تكرهين الشيطان؟ قالت: إنَّ حبّي لله قد منعني من الاشتغال بكراهية الشيطان.

ويُروى: أن رابعة رأت الرسول عليه السلام في المنام، وهو يُسلّم عليها

ويقول: يا رابعة، أَتحبّينني؟ فقالت: يا رسول الله، وهل ثمت من لا يحبُّك؟! لكن حُبّي لله تعالى قد ملأَ قلبي إلى حدٍّ لم يجعل هناك مكانا لمحبّة غيره أو كراهيته.

وسُئلت رابعة: أَترين من تَعبدينه؟ فأجابت: لو كنتُ لا أراه لما عبدته.

ويُروى: أنها كانت دائمةَ البُكاء، فسُئلت: لماذا كل هذا البكاء؟ فأجابت: أخشى أن ينادي صوتٌ في اللحظة الأخيرة ويقول: إن رابعة ليست جديرة بالمثول في حضرتنا.

وأُلقِيَ عليها هذا السؤال: أإذا تاب أحدٌ من عباد الله أتقبلُ توبته؟ فقالت: إذا لم يتفضّل عليه اللهُ بالتوبة، فكيف يتوب؟ وإذا تاب عليه، فلا شكَّ في أنه سيتقبَّل توبته.

وقالت أيضاً: ليس من المُستطاع أن تُميِّزَ بالنظر المقامات المختلفة في الطريق إلى الله، ولا أن تصل إليه باللسان، فلتجعل قلبك مُستيقظاً، فإذا استيقظ رأيتَ بعيونه الطريقَ، وكان في وسعك بلوغ المقام.

وقالت أيضاً: إنَّ ثمرة العلم الروحي هو أن تصرفَ وجهك عن المخلوق كيما تُوجّهه إلى الله الخالق وحده، لأنَّ المعرفة هي معرفةُ الله.

ويُحكى: أن رابعة رأتْ رجلاً عصبَ رأسه، فسألته: لماذا عصبت رأسك؟ فأجاب: لأنه يؤلمني. فقالت رابعة: ما عُمرك؟ قال: ثلاثون عاماً. قالت: وخلال هذه الأعوام الثلاثين هل كنتَ في غالب أحوالك سليماً أو مريضاً؟ قال: كنت في الغالب سليمًا. قالت: ولمّا كنتَ سليماً، هل عصبْتَ رأسَك يومًا علامة نعمة، حتى تشكو الله تعالى الآن بسبب ألمِ يومٍ، وتعصب رأسك هكذا؟

ويُحكى: أن رابعة كانت تعتكف إبان الصيف في بيتٍ مُنعزل لا تفارقه. فقالت لها خادمتها: سيدتي، غادري هذا البيت، وتعالي تأمّلي آثار قدرة الله تعالى. فأجابتها: بل، ادخلي أنت وتعالي تأمَّلي القدرةَ في نفسها، وأضافت: إنَّ مهمتي أنا هي أن أتأمَّلَ القدرة.

ويُحكى: آن رابعة صامت سبعَ ليالٍ وسبعة أيام متوالية دون أن تتناول شيئاً، ولا تنام الليل، مُنقطعةً إلى الصلاة، وفي الليلة الثامنة قالتْ لها نفسُها الأمّارة بالسوء، وهي تنوح: يا رابعة، إلى متى تُعذّبينني هكذا دونما هوادة؟ وخلال هذا الحديث النفسي سُمعَ صوتُ قرعٍ على الباب، ففتحت رابعة، فكان رجلٌ أحضرَ لها طعاماً في كأسٍ. فأخذته رابعة، ووضعته في البيت؛ فلمّا تركته لإشعال المصباح أتى قطٌّ وأكلَ كلَّ ما في الكأس. فلمّا عادت رابعة، ورأت ما حدث قالت: سأبحث عن ماءٍ أُفطرُ به. فلمّا ذهبت للحصول على ماءٍ انطفأَ المصباح. فعادت ورفعت الجرةَ للشرب، لكنَّها سقطت من يديها وانكسرت. فزفرت رابعةُ زفرةً كاد البيتُ أن يحترق منها، وصرخت: إلهي، ماذا أردتَ بهذه المسكينة؟ فسمعتْ صوتاً يقول: يا رابعة، إذا شئت أَعطيناك الدنيا بأسرها؛ لكن يجب من أجل هذا أن ننزعَ الحبَّ الذي في قلبك لنا، لأنَّ حبَّنا وحبَّ الدنيا لا يجتمعان معاً. فقالت رابعة: لمّا سمعتُ أني أُخاطب على هذا النحو، نزعتُ من قلبي كلَّ تعلّقٍ بأمور الدنيا، وصرفتُ نظري عن كلِّ الدنيويات، وها أنذا قد أمضيت ثلاثين عاماً لم أصلِّ فيها دون أن أقول: هذه الصلاة لعلّها تكون آخر صلواتي، ولم أملَّ من تكرار هذا القول: إلهي، أغرقني في حبِّك حتى لا يشغلني شيءٌ عنك.

ويُحكى: أنَّ رابعة كانت تنوح باستمرار، فسُئلت: لماذا تنوحين، وما من ألمٍ تشكين منه؟ فأجابت: وا أسفاه، إنَّ العلّة التي أشكو منها من نوعٍ لا يستطيع طبيبٌ أن يشفيه؛ ودواؤها الوحيد هو رؤية الله، وما يُعينني على احتمال هذه العلّة هو رجائي في أن أبلغ رغباتي في العالم الآخر.

ويُحكى: أنه أتى إلى رابعة كثيرٌ من الصالحين، فسألتْ أحدَهم: وأنت، لماذا تعبدُ الله تعالى؟ فأجاب: لأنّي أخاف النار. وقال آخر: وأنا أعبده خوفاً من النار، وطمعاً في الجنة. فقالت رابعة: ما أسوأَ العبد الذي يعبد الله تعالى رجاء دخول الجنة أو مخافة النار! وأضافت: فإذا لم يكن ثمة جنة ولا نار، أفلا تعبدُ الله تعالى؟ فسألوها: وأنت، لماذا تعبدين الله؟ فأجابت: أعبده لذاته؛ أفلا يكفيني نعمةٌ منه أنه يأمرني بعبادته؟!

ويُروى كذلك: أنَّ جماعةً من الصالحين ذهبوا لزيارة رابعة؛ فلمّا رأوها عليها أسمالٌ ممزّقة، قالوا: أي رابعة، كثيرٌ من الناس سيساعدونك إن طلبت منهم المساعدة. فأجابت: إنّي أَخجلُ من أن أسألَ الناسَ شيئاً من متاع هذه الدنيا؛ لأن شؤون الدنيا ليست ملك أحد، وما هي إلاّ عارية في يد من هي في يده. فقالوا: هذه امرأةٌ نبيلة العواطف. ثم سألوها: إن الله تعالى قد توّجَ رؤوس أوليائه بنعمة الكرامات ومَنْطَقَهُمْ بها؛ ولكن هذه المقامات لم تظفرْ بها امرأة، فكيف بلغتِ هذه المرتبة؟ فأجابت: ما قلتموه صحيح، لكنَّ الكبرياء والغرور وادعاء الألوهية لم تصدر مطلقاً عن امرأةٍ، ولم تصر امرأةٌ فاسقةً لامرأة أخرى.

ويُروى: أن رابعة مرضت، فلمّا سُئلت: ماذا أصابها؟ أجابت: في هذه الليلة عند الفجر اشتاق قلبي إلى الجنة، فأصابني الله بهذه المحنة حتى يُرغمني على الاحترام.

وروى الحسنُ البصري قال: ذهبتُ يومًا إلى رابعة أسأل عن أخبار مرضها، فرأيتُ تاجراً يبكي، فسألته: ما يُبكيك؟ فأجاب: أتيت إلى رابعة بهذا الكيس من الذهب، وأخشى ألاّ تقبله، فاذهب أنت، واطلب منها أن تقبلَهُ لعلّها تفعل. فدخلتُ على رابعة ـ هكذا قال الحسن ـ ولم أكد أُخبرها بهذا الذي قاله التاجر حتى نظرتْ إليَّ بمؤخَّرِ عينها، وقالت: إنّك أيُّها الحسن تعرف تماماً أنَّ الله تعالى يُعطي الطعام لمن لا يركعون له، فكيف لا يُعطيه من يغلي قلبه حبًّا لجلاله، هو يرزق من يسبُّه، أفلا يرزقُ من يحبُّهُ[1]؟ وأنا منذ عرفت الله صرفت وجهي عن كلِّ مخلوق، والآن، فكيف أقبلُ المال من إنسانٍ، ونحن لا نعلم أهو حلال أو حرام؟! ثم قالت: ذات يومٍ وضع في المصباح زيتٌ من بيت السلطان، ورفوت ثوبي الممزّق على ضوءِ هذا المصباح، فظلَّ قلبي طوالَ أيامٍ مغموراً بالظلمة، ولم يُضئ إلاّ حينما شققت الثوبَ الذي رفوته، فاعتذرْ لهذا التاجرِ، ودعه يذهب.

---

(١) في الأصل بالعربية.

وذات مرة جاء تاجرٌ غنيٌّ لزيارة رابعة، فرأى بيتها وهو يتداعى، فأعطاها ألف درهم من الذهب، وأهداها بيتاً جيداً. فذهبت رابعةُ إلى البيت، ولم تكد تستقرُّ فيه حتى استغرقت في تأمّل الصور التي فيه؛ فقالت في الحال، وهي تُعيد إلى التاجر الألف درهم من الذهب: أخشى أن يتعلَّقَ قلبي بهذا البيت، فلا يعودُ في استطاعتي أن أشغلَ نفسي بعمل الآخرة، إنَّ كلَّ رغبتي في أن أفرغ لعبادة الله تعالى.

ويُحكى: أن عبد الواحد بن زيد، وسفيان الثوري ذهبا يومًا لزيارة رابعة، فلمّا أبصراها أخذهما الإجلالُ لها، فأُرتجَ عليهما، وأخيراً قال سفيان: أي رابعة، ادعي الله حتى يُخفّفَ آلامك. فسألته: يا سفيان الثوري، من بعث إليّ بهذه الآلام؟ فأجاب: إنه الله تعالى. فقالت: إذا كانت مشيئة الله أن يمتحنني بهذه المحنة، فكيف أتوجَّهُ إليه مُتجاهلةً إرادته؟

وقال لها سفيان أيضاً: أي رابعة، ماذا يودُّ قلبك؟ فأجابت: يا سفيان، وأنت الرجل العليم، كيف تنطق بهذه العبارات؟ إنَّ الله تعالى يعلمُ أنَّ قلبي يُريد منذ اثنتي عشرة سنة بلحاً ناضجاً، وهو ليس بنادرٍ في البصرة، ومع هذا فقد بقيتُ حتى اليوم لا آكل منه، لستُ إلاّ عبدةً، وليس لي أن أتصرَّفَ وفق أهواء قلبي، لأنّي إذا أردتُ ولم يُرد هو لكان هذا منّي جحوداً. فقال سفيان: لكن، لستُ بقادرٍ على أن أحدّثك في شؤونك؛ لكن حدّثيني أنت عن شؤوني. فقالت رابعة: لولا ميلك إلى هذه الدنيا لكنتَ رجلاً لا غبارَ عليك. قال سفيان: فصرختُ باكياً: إلهي، ليتك ترضى عنّي. فقالت رابعة: أَلا تخجل من أن تقول لله: ليتك ترضى عني دون أن تفعل شيئاً لرضاه؟

ويُروى: أنَّ مالك بن دينار قال: ذهبتُ إلى رابعة، فوجدتها تشرب من جرَّةٍ مكسورةٍ، وقد فرشتْ على الأرض حصيرةً عتيقة، ومخدَّتُها من اللبن. فقلتُ وقلبي يغلي: يا رابعة، لي أصدقاء أغنياء؛ فإن سمحْتِ لي سألتهم أن يُعطوني شيئاً من أجلك. فأجابت: لقد أَسأتَ القولَ يا مالك؛ إنّ الله تعالى هو الذي

يرزقني ويرزقهم، أفمن يَرزقُ الأغنياء لا يرزق الفقراء؟ فإذا كانت هذه مشيئته، فنحن من جانبنا نرضى عنها كلَّ الرضا.

ويُحكى: أنَّ مالك بن دينار، والحسنَ البصري، وشقيقَ البلخي ذهبوا لزيارة رابعة، فتحدّثوا عن الإخلاص، فقال الحسن: ليس بصادقٍ في دعواه من لم يصبر على ضربِ مولاه. فقالت رابعة: هذا غُرورٌ. وقال شقيقُ البلخي: ليس بصادقٍ في دعواه من لم يشكرْ على ضرب مولاه. فقالت رابعة: هناك ما هو خيرٌ من هذا. فقال مالك بن دينار: ليس بصادقٍ في دعواه من لم يتلذَّذْ بضرب مولاه. فصاحت رابعة: هنالك أفضل من هذا. فقالوا لها: تكلّمي أنت إذن. فقالت رابعة: ليس بصادقٍ في دعواه من لم ينسَ الضربَ في مشاهدة مولاه، مثل نسوة مصر اللائي نسين آلام أيديهن لما رأين وجه يوسف.

وكان أحدُ علماء البصرة يزور رابعةَ، فأنشأ يتحدَّثُ عن شرور هذه الدنيا، فقالت رابعة: آه، لا بدَّ أنك تحبُّ هذه الدنيا، فإنَّ من أحبَّ شيئًا أكثر من ذكره، فمن يريد أن يشتري ثيابًا يتحدَّث عنها كثيراً، فلو أنَّك تجرّدت تماماً عن هذه الدنيا، فماذا يهمك من خيراتها أو شرورها؟

ويُروى: أنَّ الحسن البصري قال: عند صلاة الظهر ذهبتُ إلى رابعة؛ وكانت قد وضعت قدراً فيه لحم، فلمَّا بدأنا الحديث عن المعرفة، قالت: لا حديثَ خير من هذا؛ والأفضلُ أن أستمرَّ فيه على أن أطهي اللحم. ولم تنفخ في النار تحت القدر، فلمّا فرغنا من صلاة العشاء، أحضرتْ رابعةُ ماءً وخبزاً جافاً، ثم أفرغت ما في القدر، فوجد أنَّ اللحمَ الذي كان فيه قد طُهي بقدرة الله، فأكلنا من هذا، وكان له طعمٌ لم نتذوق مثله قط.

وقال سفيان الثوري: كنت عند رابعة ذات ليلةٍ، فصلَّتْ حتى أشرق الفجر، وصلّيت أنا كذلك، وفي الصباح قالت: يجب أن نصومَ اليوم شكراً على هذه الصلوات التي أقمناها هذه الليلة.

ويُروى: أنها كانت تقول وهي لهيفة القلب: إلهي، إن بعثتَ بي يوم البعث

إلى النار لأذعت سرًّا يُبعدُ النار عنّي بألف سنة.

وكانت تقول: إلهي، كلَّ ما قدّرته لي من خيرٍ في هذه الدنيا أعطه لأعدائك؛ وكلَّ ما قدّرته لي في الجنة امنحه لأصدقائك، لأني لا أسعى إلاّ إليك أنت وحدك.

وكانت تقول: إلهي، إذا كنتُ أعبدك خوفَ النار فأحرقني بنارها، أو طمعاً في الجنة فحرّمها عليَّ، وإذا كنتُ لا أعبدك إلاّ من أجلك، فلا تحرمني من مشاهدة وجهك.

ويُروى: أن رابعة قالت: إلهي، إذا بعثت بي إلى النار يومَ البعث فسأصرخ نائحة: ربّي، يا من أحبُّه كلَّ هذا الحب! أهكذا تعامل من يحبونك؟ فسمعت صوتاً يقول: يا رابعة، لا تظنّي بنا ظنَّ السوء، لأننا سنُعطيك مقاماً بين المؤمنين حتى تستطيعي أن تحدّثينا عن أسرارنا.

ويُروى: أن رابعة قالت ذات ليلةٍ: إلهي، حينما أُصلي، اصْرِفْ عن قلبي كلَّ وساوس الشيطان، أو بمنّك وكرمك تقبَّلِ الصلوات التي تخالطها تلك الوساوس.

وحينما حضرتها الوفاة جلسَ حولها نفرٌ كبيرٌ من الصالحين، فقالت لهم: انهضوا واخرجوا، ودعوا الطريق مفتوحةً لرسل الله تعالى. فنهضوا جميعاً وخرجوا، فلمَّا أغلقوا الباب سمعوا صوت رابعة وهي تقول الشهادة، فلمّا تلفَّظتِ النَّفَسَ الأخير، تجمّع أولئك الصالحون، وغسّلوها، وصلّوا عليها صلاة الموتى، ودفنوها في مقرّها الأخير.

ورُئيت رابعةُ في المنام، فسُئلت: بماذا أجبتِ منكر ونكير؟ فقالت: أتاني منكرٌ ونكير، فسألاني: مَنْ ربُّك؟ فأجبت: أيُّها الملكان، اذهبا وقولا لحضرة الله تعالى: أنت تأمرُ بسؤالي، أنا المرأة العجوزُ، بين هذا العدد من عبيدك، أنا التي لم أعرفْ غيرك! أفنسيتُكَ مرّةً حتى تبعثَ إليَّ بمنكرٍ ونكير يسألانني؟

وقد زار محمد بن أسلم الطوسي، ونعمى الطرطوسي قبرَ رابعة، فقالا: يا رابعة، لقد افتخرْتِ بأنك لم تحن رأسك أمام هذه الدنيا ولا الآخرة، فأين أنت الآن؟ فصاح صوتٌ من قبرها يقول: حبذا ما حدثَ ليْ! ما فعلتُ هو ما كان عليّ أن أفعلَهُ، والطريقُ الذي اكتشفته هو السبيلُ السويُّ. والله وحده أعلم.

* * *